مقدمـــة

يعـود لبطـرس الأكـبر الفضـل فـى تحـول روسـيا القيصريـة إلى الإمبراطورية الروسية .

بذل «بطرس الأكبر» خلال فترة حكمه جهداً ضخماً لإخراج البلاد من أوضاعها المتردية ، وتسـريع عملية النمو والتطـور والانفتاح على العالم .. فأرسل بعثات واستقدم علماء وخبراء مستنهضاً همم شعبه .

إرتحـل «بطرس الأكبر» مبكراً لأوروبا فـى بعثة كبرى – لم يتجاوز عندها الخامسـة والعشـرين من عمره- متخفياً فى صفة خادم ، حيث طاف ممالك أوروبا لإكتساب المعارف ، وكانت غايته استلهام تجارب الغرب فى تكوين الجيوش ، وبناء المدن والصناعات .

أنشـأ «بطـرس الأكـبر» مدينـة «سـانت بطرسـبورج» واتخذهـا مقراً للحكم ، ولجأ لتقوية جيشه ففرض التجنيد الإجبارى وأنشأ له الصناعات الحربية لإمداده بالسفن والعتاد .

وقف «بطرس الأكبر» وقفة جرئية لإصلاح الكنيسـة ، إذ إتهم رجالها بالكسل والبطالة ، ووضع قيوداً على أملاكهم وقلص سلطاتهم .

رأى أن حال الأمة لا ينصلح إلا بصلاح تعليمها ، فأرسـل البعثات للخارج – منها ما أرسله لبلادنا – وأمر بدعم ترجمات كتب العلوم ، والإنسانيات ، وأوجـب التعليم وحرم الجهلة من الميراث ، فلعب دوراً كبيراً فى تغيير مجرى تاريخ روسيا وجعلها ترتقى إلى مصاف الدول الكبرى .

وقد كتب عنه الشاعر المعروف «بوشكين» : «روسيا الغضة تصلب عودها بعبقرية بطرس» ، وكتب عنه المؤرخ «سولوفييت» : «كان ثورياً على عرش ، قاد شعبنا الضعيف الفقير إلى مسرح التاريخ من بوابة الحضارة».

«حياة بطرس الأكبر لفيكتور بوجانوف» هو الكتاب الثانى الذى تصدره دار نشر «أنباء روسيا» حول بطرس الأكبر ، وسبقه كتاب «الروض الأزهر فى تاريخ بطرس الأكبر» للفيلسوف الفرنسى «فولتير»، وكان قد ترجمه الشيخ «أحمد بن محمد عبيد الطهطاوى» أيام «محمد على» ، وبتكليف منه بعد أن لفت انتباهه إصلاحات «بطرس الأكبر» فى بناء روسيا ليستلهم منه إصلاحاته فى مصر.

محطات كثيرة فى حياة المصلح الكبير «بطرس الأكبر» ساهمت فى ذلك ... فهل لنا أن نقرأ عن هذه التجربة المتميزة هذا الكتاب ... لعلها تنفع حينما تُسلَك طرقاً للإصلاح بمجتمعاتنا لا يكاد يبين أولها من آخرها .

دكتور / حسين الشافعى

رئيس المؤسسة المصرية الروسية للثقافة والعلوم

رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير مجلة "أنباء روسيا"

تقديـــم

بـين يـدي القـارئ الكريـم، الطبعـة الثانية لأحـد الإصـدارات المهمة، الصـادرة عـن دار أنبـاء روسـيا، و يحمـل عنـوان "حيـاة بطـرس الأكبر" للأكاديمي الشهير فيكتور إيفانوفيتش بوغانوف Viktor Ivanovich Buganov، وهـو مـؤرخ روسـي مشـهور، وُلـد لأسـرة مـن الفلاحـين في قريـة ماشـينوفو «Mashenovo» في إقليـم سـيريبريانو ـ برودسـكي «Serebryano-Prudsky» ، وفي عـام ١٩٤٦ انتقـل والداه ماريا فيودروفنا Maria Feodorovna وإيفـان كيريلوفيتش Ivan Kirillovich إلى ضاحيـة دوموديدوفـو Domodedov بموسـكو، والتحـق بوغانـوف بمدرسـتها، وكان طالبًـا دؤوبًـا ومتفوقًا في الدراسـة، ومـن بعدها التحق بمعهـد المحفوظـات التاريخيـة عـام ١٩٤٦، وأنهى دراسـته فيه عـام ١٩٥١، وحصل على الدبلوم من المعهد بمرتبة الشـرف، ثم التحق بالدراسـات العليا، وحصـل على درجة الدكتـوراه في التاريخ عام ١٩٦٩، وأصبح أسـتاذًا عام ١٩٧٦ ، وعمـل أكاديميًا بالأكاديمية السـلافية الدولية للعلوم والفنون والثقافة، وتخصص في التاريخ الاجتماعي والسياسـي لروسـيا، فيما بين القرنين الحادي عشر والثامن عشر.

وفي بدايـة الثمانينيـات تجلت الموهبة الفنيـة والصحفية لدى بوغانوف بشـكل ملحوظ، حيث نشـر عدة مقالات، تناولت سيرة حكّام موسكو منـذ نهاية القرن الرابع عشـر حتى القرن الثامن عشـر، ومقـالات أخرى عن «حروب الفلاحين» بقيادة سـتينكا رازين، وهو صاحب كتاب «جنرالات القرن الثامن عشـر « الذي اشترك في تأليفه مع ابنه الأكبر أ . ف. بوغانوف A.V. Buganov، ولديه دراسة أخرى تحمل عنوان " انتفاضات موسكو"، المناهضـة للعبوديـة، و نجـح بوغانوف في جمـع الوثائق الخاصـة بالصراع

الطبقي في روسيا بشكل عام، وأيضًا الحركات الشعبية خلال الفترة الإقطاعية في شرق أوروبا.

هذا وقد وصل الإنتاج العلمي لبوغانوف لأكثر من خمسمائة عمل بحثي، بصرف النظر عن الأعمال غير المنشورة، التي واصل العمل عليها حتى أيامه الأخيرة؛ ونتيجة لذلك مُنح وسام شارة الشرف، وأخيرًا تُوفى في ٢٤ فبراير١٩٩٦بموسكو.

فهذا عن المؤلف، أما مترجم الكتاب فهو خيري الضامن، وهو من المترجمين العراقيين اللامعين في دنيا الترجمة من اللغة الروسية إلى اللغة العربية في مجالات الأدب الروسي والسياسة وتاريخ روسيا، وتمتد تجربته الإبداعية منذ ستينيات القرن العشرين.

والكتاب الذي بين أيدينا صدرت طبعته الأولى عن دار التقدم عام ١٩٩٠، ويتناول تاريخ شخصية مؤثرة تعتبر من أهم الشخصيات الأكثر تأثيرًا في تاريخ روسيا ألا وهي شخصية القائد السياسي والعسكري « بطرس الأكبر» Peter the Great ، تلك الشخصية التي تبنَّت سياسات الهيمنة والتوسع والتغريب، وحوّلت روسيا القيصرية إلى الإمبراطورية الروسية، ومن ثمّ باتت روسيا إحدى أهم القوى العظمى في العالم.

فكان لاعتلاء بطرس الأكبر (١٦٧٢-١٧٢٥) عرش روسيا القيصرية نقطة تحول في التاريخ الروسي، فقد حاول جاهدًا إخراج البلاد من أوضاعها المتردية، وتسريع عملية النمو والتطور والانفتاح على العالم الخارجي، وربط علاقات متوازنة مع الشرق والغرب، مما حدا به إلى اختيار مستشارين في الشئون الشرقية والغربية، وأرسل بعثات تعليمية في الاتجاهين، وبذل جهدًا كبيرًا ليستنهض الشعب الروسي من سباته الطويل، وينفض عنه غبار التخلف والجمود، ولم يتورَّع في ذلك عن القسوة المتناهية، وشهد عهده العديد من الحروب؛ لأجل توسيع النفوذ والهيمنة الروسية، و نجح بالفعل في ذلك حيث وضع أساس قوة روسيا الحربية، ومهّد لها سبيل التوسع وبسط النفوذ وهذا ما يحمله الكتاب بين دفتيه.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: من هو بطرس الأكبر؟ وماذا عن نشأته وإنجازاته؟

يرجع نسب بطرس الأكبر للقيصر ميخائيل رومانوف Michael Romanov، الذي تُوفي سنة ١٦٤٥، وخلفه على العرش ابنه ألكسي ميخائيلوفتش Alexei Mikhailovich، الذي بذل جهدًا كبيرًا في الإصلاح، ولكن الاضطرابات الداخلية والفتن الأهلية حالت بينه وبين تحقيق أهدافه، فتوفي سنة ١٦٧٧، وقد تزوج امرأتين، وُلد له من الأولى ذكران هما: فيدور الكسييفيتش Fyodor وإيفان Evan وست بنات، ومن الثانية بطرس وتناليا، وأوصى بالسلطة لابنه الأكبر فيودور، الذي كان ضعيف العزم والعزيمة لا يقدر على الحكم، وكان أخوه إيفان مثله في الضعف لا يقوى على سياسة الملك لضعفه، فمرض فيودور واشتد عليه المرض، وأوصى بالمملكة لبطرس عام ١٦٨٢، هذا الأخير وُلد في مدينة موسكو في ٣٠ مايو عام ١٦٧٢، وتُوفي والده وهو في الرابعة من عمره، وتقلد الحكم وهو لم يزل في السابعة عشرة من عمره.

خاض بطرس الأكبر حروبًا عديدة لعل أولها ما كان في عامَي ١٦٩٥-١٦٩٦، وكان عمره لم يتعد الرابعة والعشرين من عمره، وكانت هذه الحرب ضد العثمانيين في " أزوف" فانتصر عليهم، وعُرفت بحملتي آزوف: الأولى في أغسطس ١٦٩٥، ولكنها باءت بالفشل نتيجة هجوم العثمانيين على مقر أحد قادة الجيش الروسي «ليفورت»، وقتلوا منهم عدة مئات من الجنود الروس، وأسفر هذا الهجوم عن خسائر كبيرة؛ لذا أصدر بطرس أمرًا بالانسحاب في أول أكتوبر ١٦٩٥، واقترن الانسحاب بخسائر كبيرة بالأرواح، ونعت بطرس صراحة هذه الحملة الحربية الفاشلة بـ «حملة عدم فتح آزوف».

ولم يَنسقْ بطرس وراء روح اليأس نتيجة هزيمته في حملة آزوف الأولى، ولكنه أخذ يعدّ العدّة باتخاذ إجراءات قوية لبدء الحملة الثانية على آزوف في مايو ١٦٩٦، حيث استسلمت الحامية العثمانية، واشترطت قيادتها الحفاظ على حياة جنودها وعائلتهم، ومغادرة القلعة بسلاحهم الشخصي، وأقام بطرس الاحتفالات بالنصر على العثمانيين في موسكو.

ولَما كان هدف بطرس الأكبر من تلك الحملتين فتح نافذة على أوربا والوصول إلى البحار؛ اجتهد في أعقاب سيطرته على آزوف في بناء أسطول متكامل يستطيع من خلاله تحويل روسيا إلى دولة بحرية، فأمر بإرسال ٦١ شابًا روسيًا إلى إيطاليا وبريطانيا وهولندا لدراسة قيادة السفن «في حالة القتال وفي الرحلات العادية»، كذلك خاض القيصر حربًا شرسة ضد السويد، خلال الفترة (١٧٠٠-١٧٢١) ، فانتصر عليهم أيضًا لتصبح بلاده أهم قوة أوروبية في الشرق.

ومن أهم أعماله أيضًا البدء برحلته المشهورة إلى أوربا سنة ١٦٩٧، وعُرفت باسم «البعثة الكبرى»، وكان عمره خمسة وعشرين عامًا، حيث طاف في ممالك أوروبا لاكتساب الصنائع الحديثة، وكان الهدف الرسمي من تلك البعثة وفقًا لما قاله الموظف في مديرية العلاقات الخارجية أوكراينتسيف « تأكيد الصداقة القديمة والتمسك بالقضايا المشتركة للمسيحية كلها، وإضعاف أعداء الصليب المقدس والسلطان العثماني وخان القرم وجميع جحافل الكفرة»، مما يدلل على وجود هدف ديني للرحلة إضافة للأهداف الأخرى السياسية والعسكرية، وهذا ما أشار إليه الدبلوماسي الروسي شافيروف Shaferov بأن الهدف الرئيس من هذه الرحلة الاطلاع على الحياة السياسية في أوروبا، وبناء الأنظمة العسكرية والسياسية في روسيا على النمط الأوروبي، وحث رعايا بطرس بقدوته الشخصية، وزيارة الدول الأوروبية لدراسة اللغات والأخلاق الطيبة، واكتساب المهارات والصنائع والفن العسكري.

على أية حال رافق بطرس الأكبر الرحلة متنكرًا بصفة خادم، ومعه ثلاثة من كبار قواده، وأمر بأن يترأس البعثة الأدميرال ليفورت Admiral Lefort وهو سويسري من جنيف، ومن أشد المتحمسين لفكرة رحلات القيصر إلى الدول الأوروبية المتقدمة من أجل الاطلاع عليها شخصيًا لصالح روسيا، والثاني الجنرال غولوفين Golovin رئيس مديرية العلاقات الخارجية، ومدير الرحلة الذي امتاز بالحكمة وحسن المعاشرة، و نجح في توطيد العلاقات الدبلوماسية بين روسيا والصين، وتوقيع معاهدة نيرجنسك Nrgensk عام ١٦٨٩، والثالث عضو مجلس الدوما وكاتب

سر القيصر دونتسين دياك DontsenDiack الذي تحلى بالحكمة وسعة الاطلاع، وقام بعدة مهمات دبلوماسية في الخارج مع الإمبراطورية العثمانية والبندقية والنمسا وبولونيا، وكان مع كل جنرال أربعة كتّاب واثنا عشر مديرًا وخمسون ضابطًا من أبناء المشهورين لإرسالهم للدراسة في الخارج، فساروا يتجولون ويتفقدون أحوال البلاد التي يمرون فيها، ودخلوا برلين عاصمة بروسيا في لباس أهل المشرق، وعلى رؤوسهم القلانس المرصّعة وسيوفهم مسترسلة، وفي أمستردام زار بطرس معملاً للسفن فأعجبه من إتقان صناعتهم ودقة أدواتهم، ولما أتقن صناعة السفن دخل معامل الحديد والحبال والمطاحن والمعاصر ومعامل الورق والأسلاك المعدنية، وسجّل اسمه هناك باسم بطرس ميخائيل، وكانوا ينادونه المعلم بطرس. ودرس فوق هذه الصنائع فن التشريح وعمل عمليات جراحية، وبعد إتقانه كل هذه الفنون قام بزيارة وليم ملك إنجلترا الذي أكرمه غاية الكرم، ثم عاد إلى معمل السفن واصطنع فيه سفينة كبيرة بنفسه تحمل ستين مدفعًا، وأتقن برحلته هذه أكثر الصنائع والفنون ولا سيما صناعة السفن، ودرس من العلوم شيئًا كثيرًا كالطبيعيات والرياضيات وغيرها.

ويرجع اهتمام بطرس الأكبير بالحضارة الأوروبية؛ لتحقيق غاية تكوين جيش قوي مسلح تسليحًا عسكريًا، وإنشاء دولة حديثة متطورة بمختلف العلوم والفنون تستطيعان الوقوف بوجه الدول الأوروبية الغربية أولاً، والحصول على موانئ بحرية في المياه الدافئة على بحرَي البلطيق والأسود؛ للتخلص من المصاعب التي يلاقيها الروس في اعتمادهم على ميناء أركانجل الذي تتجمد مياهه معظم أوقات السنة، وهو الطريق الوحيد إلى أوروبا ثانيًا.

وفي حقيقة الأمر كانت رحلة بطرس الأكبر إلى أوروبا ناجحة خصوصًا في الجوانب العلمية والاقتصادية والعسكرية، فنجح في دراسة مختلف العلوم كالطبيعيات والرياضيات والعلوم العسكرية والشئون البحرية، واكتساب الخبرات الصناعية والفنية من المجتمعات الأوروبية في هولندا وبريطانيا وألمانيا، ومحاولة تطبيقها في روسيا ولا سيما في

صناعة السفن التجارية والحربية الكبيرة، وتمكن أيضًا من الحصول على الكثير من الأسلحة والآلآت والكتب العلمية والخرائط الجغرافية وترجمتها من مختلف اللغات إلى اللغة الروسية، واستقدام العديد من الحرفيين والمهندسين والعلماء والأطباء وخبراء المدفعية في روسيا؛ إلا أن الرحلة فشلت في إنجاز ما كانت تصبو إليه من عقد تحالف روسي مسيحي ضد الدولة العثمانية.

ومن أعظم أعمال بطرس الأكبر أيضًا بناء مدينة "سانت بطرسبرج" عاصمة روسيا الجديدة، والتي بناها عند مصب نهر نيفا، وقد نمت هذه المدينة بسرعة فائقة حتى صارت من أعظم العواصم الأوروبية، ثم تغير اسمها بعد الثورة إلى لينينجراد، وعادت بعد تفكك الاتحاد السوفيتي إلى اسمها الأول.

أما عن المستوى الداخلي لحكم بطرس الأكبر في روسيا، فكان غنيًا بالإنجازات فنظرًا لأن القيصر كان مؤمنًا بأنه لا معنى لأية إمبراطورية ما لم تمتلك جيشًا بريًا وأسطولاً بحريًا قويًا»؛ لذا لجأ لتقوية جيش بلاده، وفرض نظامًا للتجنيد الإجباري بالجيش يكون بموجبه على كل عشرين أسرة تجنيد شاب لخدمة الدولة، فارتفع بذلك عدد جنده إلى ٢٥٠ ألفًا، فكان يزورهم باستمرار ويقف مع جنوده في ساحة المعركة، ولأجل ذلك شُيدت الطرق ومُهدت، وأنشئت المصانع التي جلب لها خبراء من أوروبا دفع لهم المبالغ الباهظة ليقدموا خبرتهم وخدماتهم لبلاده.

وفيما يتعلق بالإصلاح الكنسي، وقف بطرس الأكبر وقفة جريئة، حيث أدخل العديد من الإصلاحات على الكنيسة الأرثوذكسية متهمًا رجالها بالكسل والبطالة، ووضع على رأس هذه الكنيسة رجلاً علمانيًا ساعده على القضاء على استقلالية الكنيسة، وأجبر جميع أعضاء المجمع الكنسي على أن يقسموا يمين الولاء له وأمامه، ووضع قيودًا على أملاك رجال الدين، وعمل على تقليص نفقاتهم.

كانت له إصلاحات أيضًا في مجال التعليم لإيمانه بأن الأمة لا تقدر الإصلاح قدره، ولا تحتفظ به ما لم تتعلم، فإذا تعلمت رضيت عنه وعما

ابتدعه؛ لذا راح يرسل البعثات للخارج، تكونت كل بعثة من ١٥٠ طالبًا بما فيها دول الشرق الأوسط لتعلم اللغة العربية، وأمر بطرس الأكبر بترجمة الكتب من اللغات الأوروبية علمية كانت أو أدبية لكي تنشر الأفكار الأوروبية والمعارف الأدبية بين شعبه، فتمّ ترجمة كتب التاريخ والجغرافيا والحقوق والاقتصاد السياسي والعلوم الحربية والزراعية وعلم اللغات، وأوجب تعليم أولاد الأعيان وخدمة الدين، وأمر بأن كل من لا يحسن القراءة والكتابة ولغة أجنبية من أولاد الأعيان يحرم من ميراث والديه، وأنشأ مدارس عمومية في كل الولايات، وأوجب على أولاد الموظفين أن يدخلوها كلهم بين السنة العاشرة والخامسة عشرة، وأنشأ مدرسة للملاحة ومدرسة للهندسة، وأنشأ المستشفيات والمتاحف.

وختامًا فنحن أمام شخصية لعبت دورًا كبيرًا في تغيير مجرى تاريخ روسيا القيصرية، وجعلها ترتقي إلى مصافّ الدول الكبرى، وذلك بإدخال العديد من الإصلاحات على كافة المستويات، وظلّ يكافح ويناضل من أجل بناء روسيا الحديثة حتى قضى نحبه في يناير ١٧٢٥، ودُفن في ٣ مارس ١٧٢٥، في كاثدرائية بطرس وبولص، في بطرسبورغ، ويرى الكثير من المؤرخين أن فترة حكم بطرس الأكبر مثلها في ذلك مثل فترة حكم محمد علي في مصر، بل هناك مقارنة كبيرة بين أوضاع مصر قبل وأثناء فترة حكم محمد علي، وبين أحوال روسيا قبل وأثناء فترة حكم بطرس الأكبر. وأخيرًا لا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم بخالص الشكر والعرفان للدكتور حسين الشافعي رئيس مجلس إدارة دار أنباء روسيا، على جهوده المبذولة لإعادة نشر الإصدارات المهمة التي تختص بتاريخ روسيا، وعلاقاتها بمصرنا الحبيبة والشرق الأوسط عامة.

وبالله التوفيق،،،

د. علي متولي أحمد
باحث في مركز تاريخ مصر المعاصر
دار الكتب المصرية

توطئـــة

جـرت العـادة في العلـوم التاريخيـة والاجتماعيـة الرُوسـية قبـل ثورة أكتوبـر ١٩١٧، ولفترة معينة بعدها، وفي العلوم الأجنبية حتى الآن أحيانًا على تقسـيم تاريخ روسـيا إلى مرحلتين: ما قبل بطرس الأكبر وما بعده، وسـبب هذا التقسـيم هـو مدى إعجـاب الناس بشـخصية إمبراطور روسـيا الأول ومصلحهـا العظيم ومدى تقديرهم لأهمية ما أنجزه في تاريخ روسـيا وللمكانة التي شغلها فيه.

وحتـى عندما كان بطرس الأكبر على قيد الحياة نشـأ بخصوصه ما يشـبه عبادة الفرد، وصار الكثيرون ينظرون إليه نظرتهم إلى إله دنيوي. وظل هذا الاتجاه سـائدًا بعـد وفاته، كان أ. نارتوف الخراط الشـهير آنذاك يحافظ مدى الحياة على الذكرى العاطرة لهذا الرجل العظيم:

مـع أن بطـرس العظيـم لم يعـد بـين ظهرانينـا، إلا أن روحـه تعيش في أرواحنـا، وسـنظل نحـن الذيـن حالفنـا الحـظ في التواجد في حاشـية هذا القيصـر مخلصـين له الدين مدى الحياة، وسـنموت ونحن علـى حبنا الجم لهذا الإله الدنيوي.

وكان العالم الرُوسـي العظيم لومونوسوف يعتبر بطرس الأكبر إنسانًا «شبيهًا بالإله»، وتساءل الشاعر درجافين:

ألم ينـزل الإلـه في شـخصه مـن علياء السـموات؟ مـا أكثـر الشـعراء والكتّاب والرسـامون والنحاتون في القرن الثّامن عشـر وبعده ممن مجدوا بطـرس الأكـبر، وكتبوا عنه، وصـوروا هذا الحاكم الشـغيل العظيم،

ولكن النَّاس بالطبع لم يكونوا مجتمعين في رأيهم هذا بخصوصه حتى في ذلك القرن الذي عاش بطرس الأكبر وتوفي فيه، فقد ظهرت أصوات نشاز في جوقة الثناء والمديح، ومنذ أن كان على قيد الحياة لم يكن الجميع يوافقونه على ما فعل وعلى الأساليب التي أدخل بها مستحدثاته الشهيرة، وفيما بعد، في النصف الثاني من القرن الثَّامن عشر اعترف البعض من أمثال المؤرخ الأمير شيرباتوف بنجاحات بطرس الأكبر في نشاطه التجديدي، ولكنهم أخذوا ينوحون ويندبون على الأعراف والعادات القديمة المتأصلة في روسيا، والتي عفا عليها الزمن في عهده بسبب نشاطه وتأثيره الكبير، وعلى تدهور وانحسار البيوتات الأرستقراطية وتدني الأخلاق، وكان البعض الآخر، من أمثال راديشيف، يعترفون بمكانة بطرس الأكبر المصلح؛ لكنهم يلومونه لأنه اجتث «آخر خصائص الفطرة الطليقة الحرة لوطنه».

واستمرت هذه المجادلات في القرن التَّاسع عشر ولا تزال مستمرة حتى الآن، لقد فكر في بطرس وتحدث عنه كثير من مشاهير العالم، وصف فولتير فترة حكمه وقال، فيما قال، إن ملك السويد كارل الثَّاني عشر الذي حارب ضد بطرس الأكبر وأبدى في البداية زهوًا وتعاليًا عليه لا يصلح إلا كجندي من جنوده.

وقال الشَّاعر الرُوسي العظيم بوشكين: «روسيا الغضة... تصلب عودها بعبقرية بطرس». وتغنى بوشكين بالقيصر النجار الذي دخلت روسيا في عهده «أبواب أوربا كسفينة أنزلت إلى الماء وسط طرق الفؤوس وهدير المدافع»، ويشير الشَّاعر في الوقت ذاته إلى أن بطرس الأكبر «ألجم روسيا بلجام حديدي»، فالكثير من مراسيمه مكتوبة بالسوط، ولم يتجرأ أحد أن يعترض عليه وارتعد الجميع هلعًا أمامه.

وقد وردت عن بطرس الأكبر أقوال وآراء متناقضة للغاية في كتب التاريخ والمؤلفات التي تتناول بالدراسة روسيا في عهده، والمؤلفات المكرسة له نفسه، وقد تجمع منها حتى الآن مكتبة كاملة، وقال مؤرخ البلاط الكاتب المعروف كارامزين بأسفٍ:

ـ لقد صرنا مواطنين للعالم، لكننا لم نعد في بعض الحالات مواطنين لروسيا، والذنب في ذلك ذنب بطرس.

قيلت هذه الكلمات في عصر بوشكين، وبعد نصف قرن أو يزيد نعت المؤرخ الروسي المعروف سولوفييت بطرس الأكبر بالثوري الجالس على العرش: فهو الذي قاد الشعب الضعيف الفقير المجهول تقريبا إلى مسرح التاريخ «من خلال الحضارة» وبذلك جمع بين نصفي أوربا الشرقي والغربي بعد أن كانا ممزقين.

تلك أمثلة على وجهات النظر المتعارضة عن بطرس الأكبر عند معاصريه وأشياعه، وكان الجدل حول شخصية بطرس المعقدة والمتناقضة للغاية، والبطولية والمأساوية في الوقت ذاته، وحول أعماله التي أثارت إعجاب البعض، وسخط البعض الآخر، قد بدأ آنذاك في عهده في خضم نشاطه العاصف وحياته الفوارة.

ومع ذلك فإن تاريخ روسيا أطلق على بطرس الأكبر بالذات نعت المصلح بكل ما في هذه الكلمة من معنى، فقد واصل أعمال جده وأبيه وأخيه، وارتقى بها إلى مستوى النجاحات المدهشة التي لم يكن سابقوه يحلمون بها.

في أواخر القرن الثّامن عشر ارتفع في بطرسبورغ، ولا يزال قائمًا في لينينغراد حتى الآن تمثال رائع لإمبراطور روسيا الأول من نحت أ. فالكوني، وعلى القاعدة كتابة تقول: «إلى بطرس الأكبر من يكاتيرينا الثانية»، كانت الإمبراطورة التي حققت روسيا في عهدها أيضًا نجاحات مرموقة في جميع ميادين الحياة امرأة مغرورة سليطة تعتقد بأنها تواصل أعمال بطرس الجليلة. وإذا تركنا جانبًا الأمور الشخصية والحسابات النفعية، فليست هي موضوع الكلام الآن، يمكننا أن نقول بإن صورة المصلح العظيم الذي يتحدى أعداء روسيا من على ظهر حصانه إنما تجسد بأفضل شكل جوهر شخصية وروح عصره.